الأبحاث والدراسات 51

صور من الاحتفالات الرمضانية عبر العصور الإسلامية (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، لغيثان بن جريس (الإسكندرية : دار السماح، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) (الجزء الثاني) ، ص ص ٢٤٥ – ٢٥٥ .

المبحث العاشر

صور من الإحتفالات الرمضانية
عبر العصور الإسلامية (*)

(*) هذا البحث نشر في مجلة المنهل عدد (٥١٣) مج (٥٥)
(رمضان ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م) ص ١١٣ - ١١٧ .

صور من الإحتفالات الرمضانية عبر العصور الإسلامية

قال الله تعالي : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة / ١٨٣) وقال تعالي : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) (البقرة / ١٨٥)، ولفضل وعلو مكانة الصيام عند الله ، ذكر الله في القرآن الكريم ، (والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) (الأحزاب / ٣٥) . ويشير البخاري إلى قول الرسول ﷺ : إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم ، وقوله ﷺ « إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » .[١] .

وجميع كتب التراث الإسلامي ، غير القرآن الكريم وكتب السنة ، مليئة بفضائل رمضان ، وما ذكر فيه من شعر ونثر ، وما حدث فيه من معارك وأحداث سياسية ، وما يواكبه من أفراح وإحتفالات ونشاطات دينية وفكرية وثقافية وعلمية وغيرها ، وما يتصف به الناس من عادات وصفات على اختلاف طبقاتهم والوانهم ولهجاتهم وأعرافهم وتقاليدهم .[٢]

(١) انظر ، صحيح البخاري (طبعة دار العربية للطباعة والنشر ، التاريخ غير مدون) جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٢) والمشاهد لأحوال المسلمين في أي جزء من أجزاء الأرض قبل بداية رمضان ، يجدهم فرحين مستبشرين بقدوم هذا الشهر الكريم ، الذي تكثر فيه الخيرات ويضاعف الله فيه الحسنات ويغفر السيئات ، ويجدهم أيضاً قد استعدوا قبل قدومه بتوفير طعامهم وشرابهم وما يتطلب لعيشهم من أجل التفرغ للصوم ، والعبادة ، وصلاة التراويح وقيام الليل ، ومن العادات التي قد نلاحظها أيضاً عند بعض المسلمين في وقتنا الحاضر ، هو قضاء وقت الليل في السهر والأكل والشرب ، ثم النوم أغلب أوقات النهار ، وهذه عادة لم نجدها عند السلف الصالح رضوان الله عليهم ، ولم نجدها حتى عند الأوائل من آبائنا وأجدادنا غفر الله لهم ، ولهذا فهي عادة غير حميدة ، لأن الله عز وجل قد جعل وقت النهار للذهاب والأياب أما وقت الليل فهو للنوم والراحة والتهجد والعبادة وما شابه ذلك .

والحديث عن شهر رمضان يطول منذ فجر الإسلام وحتى وقتنا الحاضر فذلك يحتاج لتدوين كل ما ورد عنه لعدة مجلدات ، إلا أننا نناقش في هذه الصفحات نماذج وصور للإحتفالات والتقاليد الإجتماعية التي كان يمارسها المسلمون في شهر رمضان خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة ..

يبدأ المسلمون شهر رمضان بعد انتهاء شهر شعبان ورؤية شهر رمضان، أخذاً بقول الرسول ص « إذا رأيتموه - يقصد الهلال - فصوموا » [٣] . . وفي بداية صدر الإسلام كان المسلمون يستقبلون شهر رمضان بفرحة وسرور مع الإقتصاد في الملبس والمطعم وتزيين المنازل وترتيبها ، والإجتهاد في العبادة كقراءة القرآن وقيام الليل والتصدق على الفقراء والمساكين .

ويذكر عن عمر بن الخطاب أنه فرض لكل فرد من المسلمين في كل ليلة من رمضان درهماً من بيت المال يفطر عليه ، ولأمهات المؤمنين درهمين . ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة أقر ذلك وزاده ، ثم إتخذ في شهر رمضان سماطاً في المسجد للمتعبدين والمعتكفين وأبناء السبيل والفقراء والأيتام والمساكين [٤] .

وبعد مجيء خلفاء بني أمية ثم خلفاء بن العباس ،وتوسع رقعة الدولة الإسلامية ، واختلاط عرب شبه الجزيرة العربية بعناصر مختلفة ، كالفرس، والترك والديالمة ، والصقالبة و الأفارقة ، وغيرهم ، تطورت الحياة

---

(٣) صحيح البخاري ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٤) انظر ، ابن كثير ، البداية والنهاية (طبعة القاهرة ، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م) جـ ٧ ، ص ١٤٨ ، وهكذا كان عمر وعثمان وغيرهما من الخلفاء الراشدين ، وصحابة الرسول * الذين كانوا ينفقون ويتصدقون على المسلمين وخاصة الفقراء والمحتاجين ، من أموالهم حتى لا يسألوا الناس اعطوهم أو منعوهم ، ولو شعر الأغنياء الموسرون في رمضان بحال الفقراء الذين قد لا يجدون ما يفطرون عليه ، ولو انفقوا واعطوهم مما أعطاهم الله لما وجد فقير واحد بين المسلمين .

الإجتماعية ، واندمجت بعض العادات والتقاليد بعضها ببعض ، وكثرت الأموال في أيدي الناس ، وتناقلت بعض الثقافات والعادات من عنصر لآخر . وبالتالي أثر ذلك على بعض الإحتفالات والعادات التي مارسها المسلمون في شهر رمضان وعيد الفطر ، وصار الخلفاء والوزراء والأمراء والأغنياء ينفقون الأموال الكثيرة في بناء المنازل وتزيينها قبل قدوم شهر رمضان ، بل صار خلفاء بني العباس يخرجون في الشوارع بمواكب عظيمة في أول يوم من شهر رمضان ، ويوم عيد الفطر ، ومن حولهم رجال الدولة من وزراء وأمراء وموظفين وحرس ورجال الشرطة والجيش وغيرهم .

وتطلق في تلك المواكب الصفافير وتقرع الطبول ، وجميعهم قد لبسوا أجمل الثياب وأحسنها ، وعوام الناس كانوا يقفون على جانبي الطريق التي يمر بها موكب الخليفة ، وهم ينادون « السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام » (٥) .

وينفق الخلفاء والوزراء والأمراء الأموال والصدقات على العلماء وبعض موظفي الدولة ، وعلى الفقراء والمساكين والأيتام ، بل وتمد اسمطة الطعام في الجوامع الكبيرة وبعض الشوارع أو الدور لكي يأكل عليها الصائمون من الفقراء وعامة الناس ، ويحكى عن الوزير ابن عباد أنه كان لا تخلو داره في كل ليلة من ليالي رمضان من أكثر من ألف صائم يفطرون على مائدته ، ويذكر أن صدقاته وقرباته في شهر رمضان كانت تفوق ما

---

(٥) انظر ، بدري محمد فهد ، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (نسخة مخطوطة) ص ١٦٠ . أسعد أطلس والحياة الإجتماعية في القرنين الثالث والرابع الهجري » . مجلة المجمع العلمي العراقي مج ٢ (بغداد ١٣٧١هـ / ١٩٥١م) ص ٢٧٢-٣٠٠
M.M. Ahsan .
Social Life Under the Abbssid (London , 1979) 00-275-292,
Ghithan Ali Jrais- The Social Industrial and Commercial History of the Hijaz Under the Early Abbasids 132-232 / 749-847 A. D PP. 87 ff .

ينفق في جميع شهور السنة [٦] . وهناك الكثير من أمثال الوزير ابن عباد ، كالخليفة المهدي العباسي ، وهارون الرشيد ، والمأمون ، وغيرهم من الوزراء والأمراء الذين كانوا يفعلون الخير ، ويتصدقون على المحتاجين والفقراء والأيتام خلال أيام شهر رمضان ، وفي عيدي الفطر والأضحى المباركين [٧] .

وفي عهد الدولة الفاطمية تعددت الأعياد والإحتفالات واحتفلت الدولة بمناسبات كثيرة ، كان بعضها جديداً على أعراف وتقاليد الإسلام [٨] .

(٦) آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م) جـ ٢ ص ٢٥٠-٢٥١ . سعيد عبد الفتاح عاشور « الحياة الإجتماعية في المدينة الإسلامية ، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته (القاهرة ، ١٩٧٨م) ص ٢١٩-٢٢٢ . انظر ، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) مادة (رمضان) جـ ١٠ ، ص ١٨٥-١٨٦ ، ومادة (صوم) جـ ١٤ ، ص ٣٩٢-٤٣٦ .

(٧) ولمزيد من التفصيلات عن صدقات وأعطيات خلفاء بني العباس على الفقراء والمساكين وعامة الناس . أنظر غيثان بن علي بن جريس ، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية تقديم ومراجعة الإستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م) جـ ١ ، ص ٨٩ وما بعدها ، ولنفس المؤلف أيضاً « أعمال الخليفة المهدي العباسي الخيرية تجاه أهل الحجاز » مجلة الدارة العدد (٤) سنة (١٦) (رجب وشعبان ورمضان ، ١٤١١هـ) ص ١١٣ - ١٢٩ . وللمؤلف أيضاً « مواقف خلفاء بني العباس الخيرية تجاه أهل الحجاز (١٣٢ - ٢٣٢هـ مجلة المنهل ، العدد (٤٩٧) مج ٥٤ (المحرم ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ص ٨٢ وما بعدها .

(٨) ام يعرف المسلمون إلا عيدي الفطر والأضحى اللذين سنهما الرسول ﷺ عندما جاء إلى المدينة المنورة فوجد عند أهلها يومين يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ، قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، قال : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً ، يوم الأضحى ويوم الفطر ، (رواه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود والنسائي في سننهما) ، أما بعض الإحتفالات أو الأعياد التي ابتدعها الخفاء الفاطميون ، فهي كثيرة منها : « رأس السنة » أول العام ، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين ، مولد النبي * (١٢ ربيع الأول ، مولد علي بن أبي طالب ، مولد الحسن عليه السلام ، مولد الحسين عليه السلام ، مولد السيدة فاطمة الزهراء ، مولد الخليفة الجالس على العرش ، ليلة أول رجب ، ليلة نصف رجب ، ليلة أول شعبان ، ليلة نصف شعبان ، وفاء النيل ، يوم النيروز ، يوم الغطاس ، يوم الميلاد ، عيد النصر (في ١٦ محرم) وهو اليوم الذي أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجعله في عزلة عن الناس من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٣٤هـ / ١١٣٠م ، خميس العهد (وهو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بأنجيلهم، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى وشعورهم الديني ، عيد المهرجان ، وجميع هذه الأعياد اقتبست من تقاليد وأعراف أهل البلاد المفتوحة أو المجاورة ولا سيما الفرس والبيزنطيين ، انظر حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ، ١٩٨١م) ص ٦٤٧ - ٦٥٠، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٨م) ص ١٢٦ .

ومواكب الفاطميين في رمضان كانت تمتاز بالفخامة في الترتيبات والملابس وتقديم الأطعمة في أوقات الإفطار ، وكان الخليفة الفاطمي يذهب في الثلاث جمع الأخيرة من رمضان للصلاة والخطبة في مساجد الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص على التوالي ، فكل جمعة يصلى في مسجد من هذه المساجد ويخطب في الناس فيها ، ويذكر أن صاحب بيت المال كان يشرف في صبح كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تنظيف وتأثيث المسجد الذي سيصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة ، وكان الخليفة يحضر إلى المسجد قبل وقت الخطبة بوقت كاف ومن حوله رجال الشرطة والجيش والحرس الخاص ، ثم يعتلي المنبر ويخطب في الناس خطبة قصيرة ، ثم يؤم المصلين ، وعند انتهاء الصلاة يخرج الخليفة ووزيره على يمينه وقاضي القضاة وداعي الدعاة على يساره ، ثم يعود بموكبه إلي مقر إقامته [٩].

وتتعرض بعض كتب التراث الإسلامي لبعض الإحتفالات الرمضانية في بعض المدن الإسلامية ، فيشير المقدسي ، في القرن الرابع الهجري ، إلى عادات أهل اليمن في عدن وصنعاء وصعده وغيرها ، فيقول « ويزينون السطوح قبل رمضان بيومين ويضربون عليها الدبادب ، فإذا دخل رمضان اجتمع الصبيان يدورون عند السحر يقرءون القصائد إلى آخر الليل »[١٠].

ويشير هذا الرحالة إلى بعض عادات أهل مكة المكرمة ، فيذكر أنهم ينصبون القباب في ليالي رمضان وليلة الفطر ، ثم يزينون السوق بين الصفا والمروة ويضربون الدبادب إلى الصباح ، وإذا صلوا الصبح في أول

---

(٩) حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٤٥ وما بعدها ، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٠ وما بعدها .

١٠) انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم (مطبعة بريل ، ليدن ١٨٧٦م) ص ١٠٠ .

يوم من عيد الفطر ، تقبل الولائد مزينات بيدهن المراوح يطفن بالبيت ، ويذكر أنهم كانوا « يرتبون خمسة أئمة في التراويح يصلون بالناس ترويحه، ويطوفون ويكبرون ويهللون ثم يضرب الفرقاعيات كما تضرب عند الصلوات فيتقدم الإمام الأخر ، ويصلون العشاء إذا مضى من الليل الثلث ويفرغون إذا بقى الثلث ثم ينادون بالسحور من على جبل أبي قبيس[١١] .

ويذكر المقدسي عادات أهل فلسطين في صلا ة التراويح فيذكر أنهم كانوا يجلسون بين كل سلامين من التراويح ، وإذا قام الإمام إلى كل ترويحه نادي منادي الصلاة رحمكم الله ، ويصلون ست ترويحات .

* ومن عادات أهل مكة في بداية رمضان أن يقوموا بتجديد أثاث منازلهم ، وحصر المسجد الحرام ، وتكثير الشمع والمشاعل حتى تتلألأ منازلهم والحرم نوراً ، ويشير ابن بطوطة إلى تفرق الأئمة في الحرم المكي إلى فرق ، هم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية ، أما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء في صلاتهم فيتناوبون القراءة في صلاة التراويح ويوقدون الشمع ، وبالتالي يتحول المسجد إلى خلية نحل من المصلين والمتعبدين[١٢] ، ويشير إلى فرقة الشافعية الذين كانوا

---

(١١) المصدر نفسه ، وصلاة التراويح من المميزات التي يتميز بها شهر رمضان ، ويلاحظ في المدن الإسلامية ، أو بين الأقليات المسلمة في البلدان النصرانية ، إن الصائمين يجتمعون بعد صلاة العشاء فيؤدون صلاة التراويح وأحياناً يتعاقب أكثر من إمام ليصلى بالناس في الليلة الواحدة ، بل يختلف عدد الركعات التي تصلى في صلاة التراويح فأحياناً تكون إحدى عشر ركعة مع الوتر ، وأحياناً تكون ثلاثة عشر أو واحدة وعشرين ركعة . أو ثلاثاً وعشرين ركعة كما يؤدي بعض الصائمين صلاة القيام منذ منتصف الليل حتى وقت السحور . وغالباً تكون صلاة القيام في النصف الأخير من شهر رمضان.

(١٢) ونلاحظ المسجد الحرام في عصرنا الحالي خلال شهر رمضان يكتظ بالمصلين والمتعبدين الذين وفدوا للصلاة فيه ، أو لأداء العمرة ، أو للإعتكاف أو ما شابه ذلك وكثير من الوافدين إلى الحرم في رمضان قد يكونون من خارج مكة المكرمة أو خارج المملكة .

بالمسجد ، فيذكر أنهم أكثر الأئمة إجتهاداً ، ومن عاداتهم في صلاة التراويح أنهم إذا أكملوا عشرين ركعة يطوف أمامهم وجماعته ، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون » [١٣] .

وينوه ابن جبير وابن بطوطة عن عادة التسحير عند أهل الحجاز ، وخاصة أهل مكة المكرمة ،فيذكر كل منهما أن التنبيه عن السحور كان يتولاه المؤذن الزمزمي الذي كان يقيم في الصومعة الموجودة في الركن الشرقي من المسجد لقربها من دار الأمير ، وفي وقت السحور يقوم داعياً ومذكراً وحاثاً للناس على الإستيقاظ لتناول الطعام [١٤] ، وكان يشاركه في عمله أخوان صغيران يجاوبانه ويردان عليه ونصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عمود كالذراع ، وفي طرفه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج يستمران مشتعلان مدة وقت السحور ، وإذا طلع الفجر انزل المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة وشرع في الآذان ، ويبادر بقية المؤذنين في الآذان من كل ناحية [١٥] .

ويذكر ابن جبير أن دور أهل مكة المكرمة مرتفعة ومن لم يسمع النداء للسحور ، كان يصعد إلى أعلى داره ويطالع القنديلين فإذا لم يرهما عرف

---

(١٣) ابن بطوطة ، الرحلة ص ١٧٩ .

(١٤) تختلف عادة التنبيه للسحور من مكان لآخر ، فهناك من يؤذن من المسجد أو مكان عال في القرية أو المدينة ، وهناك من يتجول في أزقة الحي مهللاً ومكبراً ومناديا لوجوب وقت السحور ، وفي الوقت الحالي تحسنت أحوال الناس فوجدت الساعات المنبهة ، والمكبرات الصوتية ، والمدافع التي تصدر أصواتاً قوية ليعلم الصائمون أن وقت الإفطار أو السحور قد حل ، ولمزيد من التفصيل ، انظر ، غيثان بن علي بن جريس ، عسير : دراسة تاريخية في الحياة الإجتماعية والإقتصادية (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ / ١٦٨٨ - ١٩٨٠م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ص ٣٠ وما بعدها ، محمد علي مغربي ، ملامح الحياة الإجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (جدة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤م) ص ٤٦ وما بعدها .

(١٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١١ وما بعدها ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٧٩-١٨٠ .

أن الفجر طلع فيمسك عن الطعام والشراب [١٦]

وخلاصة القول إن الإحتفالات الإجتماعية لدى المسلمين على اختلاف اماكنهم وأجناسهم متعددة ومتنوعة ومختلفة من مكان لمكان ومن طبقة لأخرى كل على حسب مكانته الإجتماعية والمادية والسياسية ، ومن المعلوم أن المسلمين سواسية أمام الله فلا فرق بين عربي على عجمي ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى ، ولكن الظروف التي تحيط بكل انسان تؤثر على مستواه المعيشي ، فالأغنياء والأمراء والسلاطين والوزراء يختلفون في مستوى حياتهم عن الفقراء والمساكين والطبقة الكادحة في المجتمعات ، حيث يعيش الفريق الأول عيشة حسنة بسبب توفر الإمكانات التي تمتعهم بحياة تتصف بالدعة والراحة والهناء ، هذا عكس الفريق الآخر الذي يعاني ضيقاً بسبب دخله المحدود الذي يؤثر على ملبسه ومأكله ومشربه .

والإحتفالات الرمضانية عند المسلمين عبر العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، تختلف في مستوياتها من مجتمع إلى آخر كل حسب ما يتوفر لديه من مال وإمكانات ، وخاصة فيما يتعلق بتوفير الطعام والشراب واللباس وتزيين الدور التي يسكنون فيها ، فالخلفاء والوزراء والأغنياء لم يكونوا مثل الفقراء والضعفاء أو متوسطى الدخل ، أما فيما يتعلق بعادات دخول رمضان وقضاء الصوم والإفطار والسحور فقد تكون عادات متشابهة من حيث الجوهر ، مع اختلاف فيما يقدم الفرد أو الأسرة من مأكل ومشرب أثناء وقت الإفطار والصيام .

---

(١٦) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١١ وما بعدها

ومنذ أن فرض الله تعالى على عباده صيام هذا الشهر المبارك ، اجتهد المسلمون - قدر استطاعتهم - على أداء العبادات المالية والبدنية - ابتغاء مرضاة الله تعالى فبجانب الصلوات الخمس ونوافلها وأداء صلاة التراويح ، يجتهد أغلب المسلمين في تلاوة القرآن الكريم في المساجد وفي منازلهم . ويتحاشون الخوض في الكلام والنقاش تفادياً لزلة اللسان التي يخاف المسلم أن تجرح صيامه فتؤذيه ، كما تؤذي غيره فهذا الشهر المبارك أوله رحمه وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، والعبادات المالية هي الإكثار من الإنفاق في سبيل الله في هذا الشهر المبارك ، فهناك زكاة الفطر تخفيفاً على الفقراء والمساكين واليتامى ، فصيام المسلم مرتبط بآدائها ، لأن صوم المسلم معلق بين السماء والأرض حتى يؤدي زكاة الفطر لأنها مرتبطة أشد الإرتباط بصيام المسلم وافطاره ، فهذه الروح التي يتصف بها المسلم في شهر رمضان المبارك ، ابتغاء مرضاة الله وحسن الثواب ، يؤمل أن يتمسك بها المسلم على مدار أشهر العام ، ولا يجب أن تقتصر على هذا الشهر المبارك ، ويظهر الفتور والكسل ، ويختفي ذلك الحماس الديني العظيم ، بل ينبغي على المسلم أن يكرس وقته لعبادته ، والعمل بالمعروف والبعد عن الفحشاء والمنكر ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .